الوعي الفني

بقلم سعيد عريوق

العمل الفني لا يقف عند حدود العقل ، كما لا يقف عند حدود العاطفة المجردة . انه عمل يرتكز على الفكر العاطفي المنسجم مع الذات المجتمعية الانسانية .

والفرد ، يستقي جميع امكانياته ومؤهلاته العقلية والنفسية من مجتمعه عبر تاريخه الطويل بالتفاعل الحي مع الحاضر ومع خط هذا التاريخ في المستقبل .

ولما كانت المجتمعات البشرية تشكل بمجموعها شخصية انسانية واحدة ، من حيث بعض العوامل المشتركة ، فان شخصية الفنان تتضمن جزءا من هذه العوامل المشتركة، تحت شعار العامل الانساني الواحد ...

فالعمل الفني يأخذ اصوله من قلب المجتمع ، انه حصيلة الدفع الفكري العاطفي ، ينشأ في البدء شعورا مضطربا ، ثم لا يلبث ان يصفو تدريجيا لينفعل ويتفاعل فيتفجر عبقرية فذة خالدة .

وعلى شريط الوعي والانفعال والتفاعل ، يقف الفنانون ومتذوقو الفن ، درجات درجات ، واما الطليعة فتكون دائما من نصيب العباقرة ...

ان اول شروط الفنان ليكون فنانا اصيلا ، ان يعي ذاته اولا ، محددا قوة حساسيتها ومقدار فعاليتها ، ثم ان يحدد مكان وجودها في مجتمعه ، من ضمن النظرة الانسانية المشتركة .

ولا يصح للفنان ان يعي ذاته الا بوعيه لشخصية مجتمعه في ماضيها وحاضرها واتجاه مستقبلها ، حتى يحدد على شريط الوعي الفكري العاطفي هذه الشخصية.

واما المجتمع الذي يغذي الفنان ، فهو متعدد الصفات والامكانيات والحاجات ، انه عالم صغير قائم بذاته ضمن مجموعة العوالم البشرية الاخرى ، ولا يمكن للفرد ، مهما اوتي من عبقرية ، أن يعي كامل قوة مجتمعة، اذ أن هذه القوة تبدأ منذ فجر التاريخ ، تتجمع وتتوحد وتصبح كيانا تتمثل فيه جميع امكانيات الافراد ، في وحدة تامة .

فقد يلم الفرد ببعض هذه الامكانيات ، غير انه يعجز عن الاحاطة بها كاملة . ولذلك كانت الشخصية المجتمعية اقوى من الذات الفردية ، ولذلك ايضا كان على هذه الذات الفردية ان تتفاعل دوما مع الشخصية المجتمعية لاستكمال عناصر رقيها وكمالها .

الوعي الذاتي

اننا دوما نتحدث عن معرفة النفس ، مرددين اقوال الفلاسفة حول هذه القضية . ومثل هذه المطلقات ، كثيرا ما تبقى معلقة في دوامة الجهل ، دون ان نصل الى توضيح واقعها . ولذلك كان من واجبنا ان نتفهم باستمرار الافكار الفلسفية المطلقة من ضمن النظرية العملية ، حتى تتم لنا معرفتها معرفة كلية ، بقدر المستطاع ، والا بقيت هذه الافكار ضمن حدود المظهر الجمالي الاخاذ فقط ، بعيدة عن تصرفاتنا ، وبالتالي عن امكانية تحقيقها .

ومن اجل أن يعي الفنان او متذوق الفن ذاته ، توجب عليه ان يقرر بينه وبين نفسه اللون الفني الذي يتعشقه بالدرجة الاولى ، من بين مجموعة الالوان التي يتحسس بها. ومثل هذا اللون ، خاضع حتما لتأثيرات عديدة منها السن والوسط العائلي والظروف الاجتماعية والمادية، الى ما هنالك من عوامل ، من شأنها ان تقرر بطبيعتها مدى نشاط الفعاليات الفنية في حياة الانسان . وبغض النظر عن كل هذه المؤثرات ، يتراءى لنا ان على صاحب الموهبة الفنية ان يتفقد جميع حواشي موهبته التي تتجلى باديء ذي بدء ، بالميل العفوي نحو لون فني معين . وبفضل هذا الجهد الارادي ، تزداد ادراكات المرء العاطفية من ضمن هذا الحقل بالذات ، وعند ذلك ، اما ان يخطو بموهبته خطوات واسعة ، واما أن تكون موهبته محدودة، فيقف بها عند حد معين لا يستطيع تجاوزه .

ومن اجل تقرير هذه الامور الدقيقة ، يتوجب على الفنان ان يعتمد النقد النزيه لانتاجه ومدى تقبل المجتمع لهذا الانتاج بوجه عام . وفي كل مرحلة من المراحل الانتاجية ، يجب ان يمر الفنان في حساب عسير ، يخلص منه الى تبني اشياء جديدة والى التخلي عن اشياء اخرى ، وذلك بالنسبة للراي العام القائم اولا على اساس النقاد ، وثانيا على القراء ، هذا علما بان التاريخ يسجل دوما بروز عبقريات فذة قد تسبق زمانها بكثير ولذلك كان ادراك هذه العبقريات وتقديرها يفوق ادراك النقاد ، انفسهم ، لها . ان مثل هذه المواهب الفذة ، متروك امرها للفنان العبقري نفسه وللزمن ..

ومتى استطاع الانسان الدخول في هذه المحاسبة النفسية العسيرة ، يكون عندئذ قد جاز له تعيين مركزه على شريط الوعي الفني ، مصنفا نفسه منتجا او ناقدا او متذوقا للفن ، وبهذا طبعا ، يكون قد حدد خط سيره دون لبس ولا ابهام . واما الاستمرار في التخبط او المكابرة ، بعيدا عن روح الاختصاص الحقيقي ، فان ذلك من شأنه ، أن يضيع على الفنان فرصة التقدم وعلى المجتمع فرصة الافادة من فنه .

الوعي المجتمعي

بعد ان تتحقق معرفة النفس ، ومنها معرفة امكانيات ومواهب هذه النفس ، يكون قد برز الوعي الذاتي وهذا الوعي هو جزء لا يتجزأ من الوعي المجتمعي ، لانه ينبع منه سواء أأدرك الفنان ذلك ام لم يدرك . ولذلك كانت مهمتنا شاقة جدا في هذه المرحلة بالذات ، التي يتوجب علينا فيها ان نرد الفرع الى الاصل ، اي ان نعرف الجذور العميقة في المجتمع المتصلة بها مواهبنا . ومن اجل هذا الادراك الحي الواعي ، تقضي ثقافتنا الفنية بالاحاطة، بوجه عام ، بمختلف الالوان الفنية التي ظهرت في مجتمعنا منذ فجر التاريخ ، وعلى الاخص اللون الذي نتعشق اكثر من سواه . واما الدراسة العامة لجميع الالوان فتشرط

اساسي لاستكمال ثقافتنا في الحقل الخاص ، اذ ان كل هذه الالوان ، تؤلف بمجموعها ، وحدة متكاملة تتبلور وتنتهي في شخصية المجتمع .

ولا بد عند دراسة تاريخ الفن في المجتمع الواحد من الاحاطة بجميع العوامل التاريخية الحضارية التي انفعل بها الفن في سياقه الطويل . ومن هنا يتراءى للمنقب دوما خط صعود وهبوط الروح الفنية على شريط الوعي بالنسبة لاحداث التاريخ والنزعات التي تناوبته في سيره .

وفي اثناء هذه الرحلة التثقيفية ينفعل الوعي الذاتي باحداث الماضي، فتخلق من جرائه تفجرات عاطفية عظيمة الشأن في حياة الفنان . وبقدر ما تكون الثقافة مركزه ، بقدر ما تكون العاطفة محضونة بالادراك ، وبالتالي بالفكر العاطفي .

ولا يمكن لهذه التفجرات ان تحدث الا لدى مقارنتها الشعورية او اللاشعورية بالحاضر ، مشدودة الى مثل الامة العليا كما رسمتها لها احداثها في سياق التاريخ الطويل .

فالفنان الذي لا يعود بنفسه الى روح مجتمعه ليتفقد الينبوع الاصيل لفنه ، انه لا ينفعل انفعالا صحيحا بحاضر امته وبمستقبلها ، فيكون فنه عندئذ ، مشوشا ومتعدد الشخصيات ، ان لم نقل ذا شخصية اجنبية قد تفيد منها امته بعض الشيء وقد لا تفيد ، وهذا الفن، على كل حال ، يكون عاجزا عن تاديه رسالته بعجزه عن المحافظة على شخصية امته .

الفنان هو من كان صاحب رسالة قبل كل شيء ، ومن خرج عن ذلك ، كان فنه هيئة ريح في دوامة القدر ولمرحلة زمنية معينة.

الوعي الانساني

ان المجتمعات البشرية ، بمختلف اشكالها ، في الماضي والحاضر ، صنعتها احداث كبرى وتفاعلات محلية ضمن مجموعة بشرية معينة . ان دعوة الحياة الى الرقي والتسامي هي دعوة عامة وشاملة ، ولذلك ، كان لزاما على الفنان ، وهو ابن الحياة ، ان يقدر العامل المشترك الانساني الذي يجمع بينه وبين اخيه الانسان . فالطاقة الفنية التي احاط بها والتي هي منبثقة من مجتمعه اولا، يجب ان تلتقي طبيعيا بالخط الانساني العام تلبية لدعوة الحياة ، وبغير ذلك ، تكون الطاقات الفنية المتحجرة على اساس مفهوم معين في كل بقعة من بقاع الارض ، طاقات متناحرة متحاربة عاجزة عن تلبية دعوة الحياة المثلى .

الفنان هو الانسان الحي الذي يتحسس مصير البشرية من ضمن نظرته المجتمعية وعلى هذا ، يكون فنه ذا لون انساني ، واما الطاقة الفنية التي حصل عليها من مجتمعه ، فليست الا اداة للتعبير الفني لا غاية بحد ذاتها .

وفي سبيل خدمة هذا التلاقي في الخط الانساني العام ، يتوجب على الفنان ان يحيط بقدر المستطاع بمختلف الاتجاهات الفنية العالمية ، حتى تتبلور في نفسه شخصيته الكاملة ، وبالتالي يتبلور فنه للسير صعدا في طريق الخلود .

وقوع الانفعالات الفنية

بعد ان يحقق الفنان ذاته المجتمعية الانسانية ، تبرز في ضميره الاحداث والتفاعلات التاريخية العظيمة الشأن، وتبقى ماثلة في نفسه على الدوام ، سواء افي حالة الوعي ام اللاوعي. وفي كلتا الحالتين ، يتاثر الفنان بهذه الاحداث، التي تعتبر حافزا قويا لجلاء قدرته الابداعية .

وهذه الاحداث ، منها ما ينبعث من مجتمعه الخاص، ومنها ما ينبعث من المجتمعات الاخرى ، وعندئذ تتجاوب هذه الاحداث فيما بينها بالمقارنة الشعورية ، فتولد عند الفنان تيارات جديدة من ضمن نظرته الخاصة ، تنطلق باتجاهاته الفكرية العاطفية ، الى ما فوق الواقع ، ناشدة في خيالها ، واقعا مثاليا فاضلا .

والاحداث التي نعنيها ، يمكن ان تكون ايجابية وسلبية: فالايجابية منها ، تدخل في رسم خطوط المثل ، بينما السلبية ، تولد رد فعل عنيف ، قوامه خدمة الخطوط الايجابية الصاعدة .

وبقدر ما يكون المجتمع الواحد راقيا ، بقدر ما تعتبر احداثه مرتكزا ايجابيا لاتجاهات الفنان ، واما اذا كانت حضارة المجتمع غير راقية فان روح الفنان عندئذ تتاثر بتيارات عالمية تاثرا عميقا ، فترتد لتفعل في المجتمع الخاص الى حدما .

النزعة الفنية هي حركة انفعالية تسمو بالذات المجتمعية الانسانية الى الاعالي ، فهي اذن نزعة خير وجمال تحمل على اجنحتها النفس البشرية ، لترتفع بها الى ما فوق الواقع نحو الصفاء الكلي.

ومقر النزعة الفنية الاساسي هو الضمير ، الضمير المشبع بالحرية والمعرفة : عناصر ثلاثة ارتفعت بالانسان الى اعلى الرتب ، وفصلته نهائيا عن مجموعة بقية الكائنات .

الاستاذ احمد الشقيري

محامي العرب الدائم في الامم المتحدة

يقدم الى القراء العرب في كل مكان

قضايا عربية

آخر ما كتبه بأسلوبه الساحر وبيانه المقنع البليغ

في الدفاع عن مختلف القضايا العربية الراهنة

منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

٣٠٠ صفحة من القطع الكبير في طباعة فاخرة

واخراج انيق - الثمن ٤٠٠ ق.ل.

انها دعوة تسام لا انحطاط ، وبذلك فقط ، تتجلى قيمة رسالة الفنان ، كونها تلبية صادقة لدعوة الحياة السامية.

قلنا ان الفنان يمكن ان يواجه بعد تكوين شخصيته حالتين احداهما ايجابية والاخرى سلبية ، فالايجابية تنشأ عن انتصارات الامة ، انها خطها الصاعد واما السلبية فعن الاندحارات وهي اذن خطها الهابط .

ففي الانتصارات ، تنفعل روح الفنان بعظمة ومجد الظفر ، انما لا تستطيع ان تتخطى كثيرا حدود هذه الانتصارات ، انها تكتفي بوصفها والتغني بها وتمجيدها فهي مرآة غنية الحساسية ، ولكن مرآة ، على كل حال وضمن حدود معينة من الاكتفاء الروحي.

واما في حالة المحن فترفض نفس الفنان الواقع الاليم وهي تتطلع بواسطة مثلها التي تؤمن بها ، الى منتهى الخط الصاعد ، فيكون الفكر العاطفي في هذه الحالة ، طليقا متحررا من جميع قيود الواقع ، انه يستطيع اذن ان يسمو بتأملاته ليخلد في العالم المنشود وعلى هذا الاساس ، كان احد الفلاسفة على حق حين قال :« الفضيلة ارجلها في الوحل » .

فاذا استقرينا صفحات التاريخ الحضاري ممعنين النظر في كل بيئة ظهرت فيها العبقرة الفينا بوجه عام ان المحن بشتى الوانها هي التي ادت بالدرجة الاولى الى بروز العبقريات الخالدة .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان المحن في حالة رسوخها واتساع مداها تصبح شقاء يذل الموهبة الفنية ويضعفها الى حين . وما يقال عن الفن في حياة الامم ينطبق ايضا على اساس النسبية ، على حياة الافراد الشخصية ، فيما يتعلق بالتفاعلات الوجدانية وبروزها .

ان تبعة الالهام الصافي تتفجر في قلب المحن ، اذ ان الفنان في هذه الحالة ، يتجرد من الواقع تجردا تاما ، ليدخل في الوعي الذاتي الحر والصفاء الروحي ، فتكون جملته العصبية عندئذ بكامل قدرتها على الالتقاط والانفعال ولذلك ايضا كان الالم ملازما لحياة الفنانين وكان وسادتهم الناعمة .

فالفن اذن مركزه الضمير ، والضمير كما قلنا ، يرتكز على الحرية والمعرفة ليحقق في الوجود الخير والجمال . فكل من لا يحمل في غائيته هذه القيم ، لا يعتبر فنانا صادقا مهما كانت اداة التعبير عنه راقية ، انما يعتبر حالة مرضية للفن ترتكز على المظهر لا على الجوهر .

وقد يقوم فنان بتصوير حالة بشعة تمجها الانسانية، ومع هذا نعتبر فنه اصيلا . ففي هذه الحالة يكون الفنان قد نجح في اعطائنا الصورة البشعة ليولد في نفوسنا بواسطتها ، دعوة مضادة لها انتصارا للجمال .

ان الضمير المعطي ، هو ينبوع الفن ، وكذلك ايضا الضمير المتلقي هو التربة الصالحة التي يتفاعل فيها هذا الفن .

هذه خطوط اساسية في حقل الوعي الفني دعتني الى محاولة بحثها حاجتنا الملحة في الوقت الحاضر الى تركيز وعينا تركيزا صحيحا مبنيا على العلم والمعرفة وادراك الذات .

وفي هذه المرحلة التاريخية الحاسمة ، التي بدأت الشخصية العربية تتبلور بوضوح ، اننا مدعوون جميعا الى الكشف عن اغوار النفس لنطلقها في عملها البناء نحو مستقبل سعيد زاهر .

مفيد عرنوق

منشورات
مكتبة انطوان

YAIRA

اول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني

تأليف
سعيد عقل

يطلب من جميع المكتبات

السعر ٥ ل.ل

منشورات مكتبة المعارف في بيروت
شارع المعرض ص.ب ١٧٦١

٥٠٠	عالم شتاينبك الرحيب (دراسة في فنه القصصي) تاليف بينترنيسكا ـ ترجمة عبد اللطيف شرارة ـ مراجعة سميرة عزام	
١٥٠	الزواج الناجح	اوستاس تشاسر
١٥٠	مشاكل الشباب	تشارلز دايفي
٤٥٠	من يطفيء النار	وفيق العلايلي
١٥٠	نساء اليوم (ط٢)	وفيق العلايلي

يصدر قريبا

كيف تساعدك انباطك في المدرسة	ماري فرانك ولورانس ك. فرانك ترجمة صبيحة عكاش فارس وسميرة عزام
كوبا في غمرة الكفاح الوطني الملعونة	يوسف عبده سعيد وفيق العلايلي